طريق الحرير بين ابن بطوطة و ماركو بولو

د. عبد الرحمن حميدة
جامعة دمشق

من غير اليسير على الباحثين تفسير قيام وازدهار وجلال مدن عريقة ، كانت تؤلف معالم الطريق البري الآسيوي العظيم ، كتدمر والري (قرب طهران الحالية) والرقة وبالس وبخارى وكاشغر ، دون التعرض لمواد أولية ثمينة كانت ترد من الشرق الاقصى ، مرورا بالمدن المذكورة ، وهي الحرير والحجارة الكريمة من ياقوت وعقيق ولازورد ، والفراء الذي كان يجلب من مجاهل سيبيريا .

ولكن اذا كانت طريق الحرير تبدأ شرقا من الصين فقد كانت تخترق فيافي منغوليا وحوض نهر تاريم الصحراوي وفجاج وممرات أفغانستان وبلاد فارس ، كي تخترق بلاد الرافدين ومنها الى بلاد الشام ، كي تتفرع الى فرعين . الاول : بري يخترق الاناضول الى القسطنطينية ، عاصمة بيزنطة ، ومن ثم مقر الخلافة العثمانية بعد عام ١٤٥٣م (٨٥٧ هـ) لمدة أربعة قرون من الزمن ، أو نحو موانىء البحر الابيض المتوسط ، مثل اسكندرونة وطرابلس كي تنطلق المراكب منها الى جنوة أو البندقية ، أو مرسيليا .

ولقد ظلت هذا الطريق مهوى أفئدة تجار أوروبا ومغامريها وسبب الشعور المرير بالحسد لديهم تجاه تجار المشرق العربي ، في مصر أو بلاد الشام ، الذين كانت توابل الشرق الاقصى والحرير والحجارة الكريمة تمر من خلال أيديهم ويجنون من ورائها الارباح الطائلة ، اذ كانوا مضطرين ، صاغرين ، الى شرائها بوساطة المشارقة القسرية .

ومن المفارقات العجيبة أن يقصد الصين ، مصدر الحرير ، الذي كانت تتلهف على شرائه الاوساط المترفة ، بعد تحويل شرانقه ألى أقمشة ، طبعا ، من شعوب الشرق الادنى وأوروبا وأفريقيا ، أقول أن يقصد بلاد الشرق الاقصى اثنان من مشاهير الرحالة ، ينتسب أولهما الى دولة ذات تقاليد بحرية عريقة ، هي جمهورية البندقية، وأقصد به ماركو بولو M. Polo ، الذي بلغ الصين عن طريق البر ، عن سابق تصميم ، في حين بلغ ابن بطوطة الطنجي الصين ذاتها ، ولكن عن طريق البحر ، بصورة رئيسة ، وهو المنحدر من قبيلة لواته البربرية ، والمنتسب الى مملكة المغرب التي لم تكن تملك أسطولا كبيرا ولا تقاليد بحرية عريقة ، حتى أن سلفه الرحالة ابن جبير

دراسات تاريخية ، العددان ٣٩ و ٤٠ ، كانون الاول ١٩٩١ .

قصد الحج على متن سفينة جنوية . كيف لا وقد أطلق العرب على البحر المتوسط اسم بحر الروم ، بعد أفول نجم سيادتهم عن حوضه ، اللهم الا في خلافة عثمان بن عفان سنة ٢٨هـ / ٦٤٩م . وقد كانت آخر محاولة للبحرية العربية في عهد معاوية سنة ٦٧٤م ولكن الاسطول العربي اضطر للانسحاب بعد أن استعمل البيزنطيون النار اليونانية ، وقال شاعر عربي :

البحر مرّ المذاق صعب — لا جُعلت حاجتي اليه

أليس ماء ونحن طين؟ — فما عسى صرنا اليه

كما روي عن الشاعر أبو العرب الصقلي يشكو ضعف قوة العرب البحرية بالموازنة مع بحرية بيزنطة وأسطول جمهوريتي البندقية وجنوة :

لا تعجبن لرأسي كيف شاب أسى — وأعجب لأسود عيني كيف لم يشب

البحر للروم لا تجري السفين به — الا على غررٍ والبرّ للعرب

وكان على العرب عامة والمسلمين خاصة أن ينتظروا حتى القرن السادس عشر الى أن يظهر خير الدين بربروس أمير البحرِ في عهد السلطان العثماني سليمان القانوني ، الذي قهر أسطول آندريا دوريا الجنوي (١٤٦٦ ــ ١٥٦٠) والذي سبق له بدوره أن قهر الاتراك في معركة بلانوزا Planoza ، أو بعبارة أخرى أعاد بربروس ذكرى انتصار معركة ذات الصواري في أيام الخليفة معاوية الاول .

* * *

واذا كان ماركو بولو ينحدر من أسرة تملك بيوتات تجارية ، في موانىء شرقي البحر الابيض المتوسط ، وكان يريد استكشاف الطريق التجارية البرية الذي كان حكرا على المسلمين ، مما يجعل من ماركو بولو شبيها في دوافعه بكريستوف كولومبالذي كان يبحث عن طريقتقوده للهند مصدر التوابل وسلع الشرق الاقصى للتخلص من هيمنة العرب على تجارة هذه المواد الغالية ، فان ابن بطوطة كان أقرب الى سائح وصوفي وعالم فقيه .

والواقع لم تحقق معرفة الارض ، في أوروبا ، خلال الفترة الممتدة من عصر الاسكندر المقدوني الكبير أو الثالث (٣٥٦ ق.م ــ ٣٢٣ ق.م) حتى القرن الثاني عشر الميلادي ، أي تقدم يستحق الذكر . وظلت جغرافية بطليموس هي المصدر الكبير للمعلومات الجغرافية عن العالم . وبالطبع كانت هناك رحلات وأسفار ، فوق متن البحار وعلى الطرقالبرية، قام بها العرب منذ القرنالثامن الميلادي (الثاني الهجري) بلغوا فيها الصين ذاتها برا أو بحرا .

ولهذا كان لاول كتاب يظهر في لغة أوروبية بعد فراغ في قائمة المستكشفين امتد على ١٥٠٠ عام في القارة الاوروبية وهو كتاب ماركو بولـو ، صداه الواسـع المدى وتأثيره . ففي خلال هذه الحقبة لم يرد ذكر للقارة السوداء أو آسيا البعيدة ، غير أن التعطش للمعرفة ظل يقظا ومتحفزا ، ومتجها نحو قطب الفضول العلمي ، أي نحـو الهند ، وكان هاجس ارتياد طرق الشرق الاقصى ، الذي حققه الاسـكندر ، والذي شغف به آخرون من قبله ، أقول راح هذا الهاجس يدغدغ بشكل مكتـوم ، وخـلال خمسة عشر قرنا ، ادمغة سكان السواحل الشمالية للبحر المتوسط . وقبل أن يندفع كريستوف كولومب فوق عباب بحر الظلمات (المحيط الاطلنطي) كانت أوروبا ترسل رهبانها ، وتجارها ، وسواحها ، نحو مجاهل الاراضي الشرقية . فلم يقم فاسـكو دوغاما برحلته ، التي طاف بها حول أفريقيا واكتشف رأس الرجاء الصالح ، وتوقف في موزمبيق وبلغ الهند ، وما كانت رحلة كريستوف كولومب ، الا بقصد الاستيلاء على الكنوز الاسطورية التي كتب عنها رحالة سابقون ، والتي لا يمكن بلوغها الا بالالتفاف من خلف الحاجز الاسلامي الذي كان يغلق الطريق في ذلك العصـر في وجـه النفوذ الغربي الى الصين .

فحتى ذلك الوقت كان الشرق ، في أنظار الاوروبيين ، مرادفا للرعب والمخاوف بعد فشل الحملات الصليبية المتتالية . وفي أعقاب الاجتياح المغولي الكبير الذي لـم تنج منه أوروبا الا بمعجزة في ١٢٤١ م ، لم تحقق السفارتان اللتـان قام بهما عدد من الرهبان الفرنسيسكان أي نجاح يذكر ، والتي كانت أولاهما برئاسـة جان دوپـلان كارپـان Carpin (١٢٤٥ ـ ١٢٤٧م) ، والثانيـة بقيـادة غليـوم دو روبـرك G. de Rubrock (١٢٥٣ـ١٢٥٤م) ، بعد أن وصلا الى كورو كوروم ، عاصمة المغول في أواسط القرن الثالث عشر ، وكانت مهمتهما تنحصر في تسليم (الخان الكبير) رسالتين من البابا اينوسان الرابع ولويس التاسع ، ملك فرنسا وقائد آخر الحملات الصليبية . وقد رجع پلان دو كارپان الى أوروبا حاملا الجواب الشهير من امبراطور المغول والذي يقول فيه : « نحن نعبد الرب ، وبالاستعانة به ، سنقوم بغمـر الارض بالاطلال بدءا من الشرق حتى الغرب » .

ومن الجدير بالذكر أيضا التنويه برحلة بنيامين الطليطلي ، الذي يعود أصلا الى اقليم نافار في اسبانيا ، والذي قام قبل قرن من رحلة ماركو بولو وظل خلال ١٤ عاما يرتاد أرجاء آسيا بقصد « زيارة واحصاء كل اليهـود من أتباع الديانـة الموسـوية المنتشرين على سطح الارض » . وقد ارتحـل بنيامين المذكور مـن القسطنطينية الى بغداد ، ومنها الى سمرقند وجزيرة سرنديب (سـيلان أو سيريلانكا الحالية) وبلـغ الصين كي يعود الى الحبشة ، وقدم ملاحظات أدت لتوسـيع المعلومات الجغرافيـة الاوروبية في ذلك العصر ، عن أصقاع آسيا الداخلية .

ماركو بولو (١٢٥٤ ــ ١٣٢٤) :

وقد كانت أسرة بولو Polo تملك مؤسسة تجارية عريقة في القسطنطينية ، ومكتبا تجاريا فرعيا هاما في شبه جزيرة القرم ، كما كانت أسرة بولو ، في الوقت ذاته على اتصال وثيق مع بلاد الشام ، ولا سيما في حلب «خان البنادقة» ، ومع امبراطورية التتر ، وهذا عندما قام الاخوان نيكولو ، وعمه ماتيو ، بالانطلاق في سنة ١٢٦١ نحو الصين ، وجرى لهما استقبال في بلاط الامبراطور كوبيلاي خان(١) الذي عهد اليهما بمهمة السعي لدى البابا لارسال « مائة من علماء وجهابذة الفنون السبعة » . وبعد عودتهما الى البندقية في ١٢٦٩ استأنفا رحلة العودة الى الصين مصحوبين بالشاب ماركو ، الذي كان عمره آنئذ ١٧ عاما ، وحملهم البابا غريغوار العاشر رسالة وهدايا للامبراطور كوبيلاي ، الذي استقبلهما سنة ١٢٧٥ في مقره الصيفي في مدينة شانغدو (كايبينغ اليوم) بعد رحلة استغرقت ٤ سنوات ، اجتازوا خلالها بلاد فارس وهضبة بامير والتركستان الشرقية ، وطريق غانسو (اليوم كانسو) وبلاد خطاي (الصين الحالية) . ولم يغادروا الشرق الاقصى الا بعد ١٦ عاما ، أي في ١٢٩١ ، كي يبلغوا موطنهم في البندقية في عام ١٢٩٥ .

وكانت بداية الرحلة التي اشترك فيها ماركو ، في عام ١٢٧١ ، انطلاقا من ميناء باياس في صدر خليج اسكندرون وقضت ثلاثة أعوام ونصف نحو بكين ، من أقصر طريق ، أي من جنوبي الجبال السماوية في سلسلة تيان شان . وقد بلغوا أولا مدينة ايسوس Issus ، رأس خط التجارة الآسيوية ، والذي لم يحيدوا عن ركوب مساره . وفي أرمينية زاروا أولا قمة جبل آرارات ، حيث زعم ماركو أن فيه بقية سفينة نوح عليه السلام . أما بحر الخزر الذي كان يمخر عبابه آنئذ البحارة الجنويون، منافسو البنادقة ، فقد ذكر ماركو وجود منابع النفط ، الذي كان يستخدم كوقود وكعلاج ضد جرب الابل . ومن هناك انحدر نحو هرمز في مدخل الخليج العربي حيث كانت تتفرغ حمولة المراكب ، المجدولة بالالياف ، من بضائع الهند .

ثم صعد الركب نحو الشمال ونحو الشرق مرورا بصحارى تحوي مدنا مزدهرة الى أن بلغوا سابورغان التي تشتهر « ببطيخ أكثر حلاوة من العسل » ووصلوا مدينة بلخ عند التخوم الشمالية الشرقية لبلاد فارس ، واقليم بادخشان ، الواقع بين جبال

---

(١) كوبيلاي : امبراطور الصين من عام ١٢٥٩ الى ١٢٩٤ . ولد حوالي العام ١٢١٤ ، رأبوه طولوي، حفيد جنكيز خان . وأسس أسرة يوان Yuan التي حكمت الامبراطورية بين ١٢٨٠ ــ ١٣٦٨ . وأخذ على عاتقه الاستيلاء على امبراطورية سونغ . ولكنه اصطدم باليابان والهند الصينية . وقد أخضع لسلطته ملوك آنام وتشامبا وبورما . وكان عليه أن يحارب ضد عمه كايدو ممثل حزب المنغول القديم . وقد دان الصينيون لسلطته بعد تبني عاداتهم وحمى البوذية . وقد عهد لماركو بولو بسفارة سياسية دبلوماسية .

هندكوش ونهر آموداريا ، حيث كانت الاسرة المالكة هناك تدعي أنها تنحدر من الاسكندر المكدوني الكبير .

وبعد أن غادرت القافلة هذا القطر الغني بالياقوت الاحمر ، واللازورد ، والفضة بلغت هضبة بامير التي قدم عنها ماركو ، لأول مرة ، وصفا مستفيضا ، ثم وصلت البعثة سهل كاشغر ، أي سلكت الطريق التي سبق أن سارت فيه قافلة الاخوين بولو ، خلال رحلتها الاولى ، واجتازت شارخان الواقعة عند تخوم امبراطورية الخان الكبير « الذي تجرف أنهاره الاحجار الكريمة الثمينة حتى السهل ، ومن هناك ترسل الى الصين كي تباع هناك » .

ومن هذه البلاد غير الواضحة المعالم والتحديد ، وصل البنادقة الثلاثة ، بعد أن اخترقوا صحراء لوب ، الى أول مدينة صينية هي مدينة ساتشيئو ، ومنها الى كابيتشو (خان خو حاليا) حيث مكثوا هناك عاما كاملا . ولما كانت اهتماماتهم تتمحور حول المعلومات الاقتصادية ، فقد درسوا ، بامعان ، كل معالم المنطقة ، واندفعوا حتى انهم جمعوا عينات من وبر بقر اليال الذي يعيش في الهضاب الجبلية ، ولا سيما في التيبت ، والذي قاموا بغزله فيما بعد في البندقية ووجدوا أنه أكثر نعومة من الحرير ذاته . وبعد أن زاروا صحراء قره قوروم بلغوا مدينة تندوك الواقعة الى الغرب من النهر الاصفر (هوانغهو) . وتابعوا طريقهم نحو سينداكو وتشانغنور حيث أقام الخان الكبير قصرا لممارسة هوايته في قنص النمور والحمر الوحشية ، ولكن دون أن يأتوا على ذكر السور العظيم ولو بكلمة واحدة . وأخيرا وبعد ثلاثة أعوام ونصف من الاسفار ، وعند مدينة كايبيفو ، تمكنوا من مقابلة الامبراطور كوبيلاي ، في مقره الصيفي ، والذي لا تزال أطلاله ماثلة ، على مسافة ٢٠٠ كم الى الشمال من عاصمة الصين الحالية ، بكين . .

وهناك ، قدموا تقريرا عن رحلتهم « لسيد كل تتر العالم ، أي من تتر المشرق الى تتر المغرب » . وكان عمر الامبراطور ذي العينين السوداوين والبشرة الفاتحة اللون ، أربعة وخمسون عاما ، وكان ربع القامة ويميل للبدانة . وكان يقطن مقصورة ، مقطورة ، مصنوعة من قصب البامبو المزوّق بالذهب ، والتي كانت تتنقل من وقت لآخر ضمن حديقة حيوانات حقيقية يقع القصر داخلها . وكان بمقدور هذا القائد الكبير أن يعبىء جيشا مقداره نصف مليون محارب ، وهو رقم هائل في ذلك العصر ، وكان بلاطه يفوق في فخامته وفي بهائه كل أمثاله على سطح الارض . وقد اختار عاصمة له المدينة الصينية « كامبالوك » القريبة من بكين ، والتي كانت مركزا ثقافيا ، أقام فيه سنة ١٢٧٩ م مرصدا يشرف عليه اختصاصي بيزنطي . وكان يضم كل الادوات

المعروفة في ذلك الزمن ، وكانت هذه المؤسسة العلمية تمثل نوعا من جامعة يدّرس فيها علماء من كل العقائد والمذاهب .

وكان يسكن في العاصمة كامبالوك التي كانت تتمركز فيها الحكومة اثنا عشر من الاعيان الكبار الذين يحكمون أربعة وثلاثين اقليما تتألف من مجموعها الامبراطوريـة المترامية الاطراف . وكان حكمهم ميسورا الى حد كبير بفضل منظومة طـرق تؤلف شبكة تعمل فوقها خدمات بريدية تضم ۱۰۰۰۰ محطة وتستخدم مائتي ألف رأس من الخيــل .

وكانت هذه المدينة متصلة بنهر اليانغتسه ، أكبر أنهار الصين ، بقناة تمتد لاكثر من ۱۰۰۰ كم مجهزة بهويسات وبطريق جانبية . وكان يسمح عرضها وطولها وعمقهـا للمراكب الكبيرة أن تسير فيها بسهولة . وقد تراءى نهر اليانغتسه للرحالة ماركو بولو كأهم شريان ملاحي داخلي رآه في حياته ، وهو يروي ١٦ اقليما ويربط بين ٢٠٠ مدينة كبيرة وتشهد سجلات الجمرك على مرور ۲۰۰۰۰۰ مركب فيه في اتجاه واحد سنويا .

ولم تكن مدينة كامبالوك هي الوحيدة التي أثارت اعجاب ماركو بولو . فقد جرى تعيينه حاكما على مدينة لا تقل من حيث عدد سكانها عن العاصمة ذاتها ، وهي كينساي (هانغتشيئو حاليا) وكان محيطها يمتد على ١٠٠ فرسخ (١) وكانت تماثل البندقية لأنها كانت قائمة فوق العديد من أذرع نهر تسيانتانغ، على مسافة غير بعيدة عن البحر . وكانت هذه المدينة تضم ٦٠٠٠٠٠ عمارة ، و ٤٠٠٠ حمام تسخن مياهها على الفحم الحجري المستخرج من جبال كاتاي Cathey وكانت تحوي أيضا بحيرة داخلية يبلغ طولها ٤٠ فرسخا(٢) ، ويتجول فوقها ١٠٠٠ زورق للمتعة والتنزه ، هذا فضلا عـن القصور والاديرة والكنائس ، ومئات الجسور . وكان شارعها الكبير الذي يبلغ عرضه أكثر من ١١٠ م يخترق تسعة أسواق كبيرة ، بالاضافة الى شوارعها الثانوية الفرعية المبلطة والمجهزة بالمجاري وأحياء أطبائها وأحياء خاصة بعلماء الفلك ، وكانت تؤوي قرابة ٣ ملايين نسـمة .

وكانت هذه المدينة العملاقة عاصمة اقليم مانزي الذي فتحـه كوبيلاي وكانت حاضرة ١٤٠ بلدة من أصل ١٢٠٠ مدينة تقع ضمن الممالك التسع في المنطقة . وكانت مركزا تجاريا تعجز أوروبا عن تكوين فكرة عنها ، وكان تموينها لوحده يفترض وجود تنظيم غير معهود في الغرب . ويقدم ماركو بولو مثالا عن وزن الفلفل الذي كان ضروريا لاستهلاكها اليومي ، وهو ٩٥٨٩ رطلا أو ٤٫٨ طونات . هذا كما كانت أيضا مكان لهو ،

---

(١) الفرسخ طوله ، عند ماركو بولو ، ٥٫٧٥م ، أي محيط المدينة كان يمتد على ٥٫٧كم .

(٢) أو ٢٧ كم .

ففي جزيرتي بحيرتها الداخلية كانت تجري حفلات أفراح عديدة . وكانت تسير في شارعها الرئيس عربات خاصة بالاثرياء وعليّة القوم للاستمتاع بالاحتفالات السرية ضمن مقصورات مشيدة في حدائق كانوا يدعون اليها أصدقاءهم .

وكانت هذه الحياة الحثيثة والمتناسقة تفترض وجود اقتصاد منظم ولا سيما وجود نظام مالي راقٍ . وقد لاحظ ماركو بولو ، بدهشة ، أن المبادلات كانت ترتكز على عملة رسمية أو « سندات ممهورة بخاتم الامبراطور كوبيلاي » وكانت قيمتها تتراوح بين نصف درهم و ١٠ دنانير ذهبية ، يصدرها مصرف حكومي ، وتتألف من ورق أسود مستمد من لحاء شجر التوت . وكان الناس يدفعون للمصرف ، وذلك عدة مرات في العام ، ما يملكون من ذهب وفضة وأحجار كريمة، مقابل هذه العملة الورقية. وعلى نقيض ذلك كان بمقدورهم أن يستردوا منها حسب حاجاتهم . وهنا اكتشف هذا التاجر البندقي العملة المصرفية .

وقد مكث ماركو بولو في خدمة الامبراطور كوبيلاي مدة سبعة عشر عاما ، وعهد اليه فيها بالعديد من البعثات الرسمية كما قام ، وهذا لحسابه الخاص ، بعدة رحلات اندفع فيها حتى التيبت ، من أجل عقد صفقات تجارية شخصية ، وكذلك الى مختلف الاقاليم الصينية ، احداها من بكين الى اقليم يونان والاخرى من بكين الى فوجيان Fou-Kien والى الهند وربما الى بلاد زيبانغو (اليابان) . وقد أخذ على عاتقه القيام بالعديد من المهام التي أوكلت اليه بانتظار فرصة موائمة لمغادرة البلاد . وجاءت الفرصة السانحة أخيرا . فقد جهز كوبيلاي ابنته التي خطبها الامير المنغولي آرغون ، الذي كان يحكم بلاد فارس ، وأوكل أمرها الى ماركو بولو الذي قرر أن يسلك الطريق البحرية . وقد وُضع تحت تصرفه أسطول مؤلف من ١٤ سفينة مجهزة لرحلة تستغرق عامين . وكانت هذه المراكب من النمط المألوف ، مجهزة بالعديد من القمريات المريحة ، وبستائر كتيمة مطلية بالقار .

غادر ماركو بولو ميناء زيتون (بين آموي وفوتشيئو) نحو العام ١٢٩١ م وبلغ اقليم كوشنشين في الهند الصينية الذي سبق له أن زاره ، ثم أقلع باتجاه صومطرة التي اعتقد أنها جزيرة « جاوه الصغرى » ومكث مدة خمسة شهور في هذه الجزيرة بانتظار الرياح الموائمة . وقد استغل هذه الفرصة لدراسة الجزيرة بأن قام فيها بالعديد من الرحلات حيث التقى ببشر ذوي أذناب (قردة) وبالكركدن ، الذي قيل له أن لسانه لوحده ، هو أخطر ما فيه بسبب الاشواك المسلح بها . وتذوق خمر النخيل المشهور كعلاج ضد مرض الاستسقاء ، ومرض الاكتئاب ، كما اكتشف نخيل الخبز الذي ينتج دقيقا ، كما حصل على حبوب نبات هيماتوسيلون hématosylon الذي يعرف عند الصباغين باسم « برازيل » والذي حاول أقلمة زراعته في أوروبا .

ومن صومطرة ، التي كان يخشى فيها أكلة لحوم البشر الذين كانوا يفترسون الكهول والعجائز من أهلهم ، اتجه ماركو بولو نحو جزر نيكوبار ثم الى سيلان التي وجدها صغيرة ، وتصور أنها تغوص في الماء « بسبب رياح الشمال العنيفة » . وقد تفاوض مع ملكها ، الذي كان يملك أكبر ياقوتة بالعالم ، بقصد شرائها مقابل « قيمة مدينة » لحساب الخان الكبير . ولكن الملك رفض العرض . وقدم له طاسة من المعدن الثمين ، وبعض شعرات آدم ، الذي يقع ضريحه ، حسب اعتقاد مسلمي المنطقة ، في قمة جبل يحمل اسمه .

وانطلق الاسطول صاعدا في اتجاه الشمال مواكبا سواحل الهند وبلوشستان . ووجد نفسه في بحر كان ، في ذلك الزمن ، مجالا خاصا بالملاحين العرب الذين قدموا لماركو بولو ، عن طيب خاطر ، معلومات عن البلاد النائية التي يمكنه ارتيادها ، وكان بذلك أول أوروبي يذكر جزيرة مدغسكر التي ربما التبس عليه أمرها مع المنطقة القارية أي « موغاديشو » عاصمة الصومال ، لانه يروي أنها مأهولة بالابل وبالفيلة التي كان يثيرها سكان الجزر بقصد تهييجها عند احتدام المعارك . غير ان ملاحظة هامة استقاها من العرب عن « رأس كوريانتس » أي « رأس التيارات » والذي كان الملاحون العرب لا يغامرون بالابتعاد لما وراءه خوفا من أن تجرف سفنهم نحو الجنوب بتأثير تيار موزمبيق الشديد . وهكذا ندرك السبب الذي جعل طريق « رأس الرجاء الصالح » البحرية مجهولة وتحاشاها الملاحون العرب من الشرق ، ولم تكتشف فعلا الا بجهد اناس قادمين من الطرف الآخر من القارة السوداء ، أي البرتغاليين ، وبعد قرنين من الزمن .

ونقل ماركو بولو أيضا بعض الاخبار عن جزيرة زنجبار ، وعن جزر يصعب الاقتراب منها حيث يسود فيها طائر يفرد جناحيه على مسافة ٥٠ مترا ، هو الرخ ، الذي أثار مخاوف الخان الكبير ذاته . وقد جلب بعض المستكشفين الذين أرسلهم ريشة منه ذات أبعاد مذهلة فضلا عن أنباء أخرى مثيرة ومستغربة .

ويجب أن نرى في ذلك تلميحا عن النعامة التي كانت تدعى آبيرونيس Aepyronis والتي انقرضت تماما في هذه الايام والتي تعتبر بيوضها أساس هذه الاسطورة .

وأخيرا بلغت الحملة هرمز وسلم ماركو بولو لابن آرغون الاميرة التي تكفل بايصالها لخطيبها . وبعد أن حصل على خفارة قوية بلغ مدينة طرابزون والقسطنطينية ومن ثم مدينة تغرومونت . وفي عام ١٢٩٥ م وصل البنادقة الثلاثة الى موطنهم حيث وجدوا عائلتهم التي استقبلتهم ببرود بعد غياب استمر ربع قرن وتصورت أن هناك خدعة . وقد أثار هؤلاء الجوالة الدؤوبون على حب الاستكشاف الارتياب في كل مكان أكثر مما حازوا الاعجاب .

غير أن أبناء أسرة بولو الثلاثة لم يستغربوا ما لاقوه بعد أن كشفوا عن هويتهم. ولما برهنوا على صدقهم بنثر الثروات التي حملوها معهم أطراهم مواطنوهم وحكومتهم على مآثرهم، كما أن ماركو بولو الذي لم يسأم من ذكر ملايين الامبراطور كوبيلاي لقبوه « السيد مليون » وتقلد مناصب سامية. وفي العام التالي سقط ماركو بولو أسيرا في معركة كورزدلا في ١٢٩٨ بأيدي الجنويين على اثر هزيمة البندقية وخلال أسره الذي استغرق ثلاثة أعوام أملى على رفيقه بالسجن روتيشيللو Rutichello من أهالي مدينة بيزا الايطالية كتابه الشهير « عجائب العالم ».

وكتاب « عجائب العالم » أكثر من سرد بسيط لرحلة، فهو لوحة جغرافية واتنية éthnique واقتصادية عن الصين، ولائحة عن معتقداتها ومذاهبها ومؤسساتها ومنتخبات عن العديد من حكايات تتعلق بماضيها الاسطوري، ولا سيما عن جنكيزخان وحتى عن الملك يوحنا الحبشي، وأخيرا هي تأريخ لمدة خمسة عشر عاما من النشاط السياسي. وتبدو مذكرات ماركو بولو، طبعا، مشتملة أحيانا على ثغرات، أو مغلوطة، وهذا ما جردها من كثير من الاعتبار لدى معاصريه، حتى لقد ناشدوه وهو على فراش الموت أن ينتزع « الاكاذيب » من كتابه. ولا يصمد هذا البندقي دائما أمام اغراء تزويق روايته، أو المبالغة بأدواره التي لعبها، والاحداث التي ساهم فيها. ولكن اذا كانت رواياته لا تخلو من نزوات فهي الاولى، لدى الاوروبيين، التي تعطي لمحة تامة عن آسيا، وتظل الوحيدة التي تصف مناطق لا تزال، حتى اليوم، بحاجة للمزيد من المعرفة مما لا يحول بيننا وبين الذهول أمام الروح النقادة التي يذكر بها المصادر التي اعتمد عليها في رواية الاحداث، وأخلاق الاقوام والاصقاع التي أتيحت له فرصة رؤيتها رأي العين وأن يختبرها بنفسه. واذا كان ماركو لم يتعلم أكثر من نتف من اللغة الصينية، فان معرفته كانت متعمقة في المنغولية ولا سيما الفارسية، وهي اللغة الشائعة حينذاك في كل من الصين الوسطى والشرقية في مجال المبادلات الثقافية والتجارية ولا سيما بيوتات تجارة الحرير التي كانت ترجح الطريق البرية الجافة بدلا عن الطريق البحرية التي تعرض هذه المادة الحساسة للتلف السريع بسبب شدة الرطوبة. وأخيرا فان اتساع مروحة أخباره يعود، بالاضافة الى طول أمد اقامته، الى البعثات العديدة التي سنحت له فرصة القيام بها بتكليف من امبراطور ذكي يهتم بجمع كل الوثائق الاتنوغرافية عن أقطار شديدة التباين، لا سيما وان الامبراطور عهد اليه بأمر ادارة ضريبة الملح، هذا فضلا عن سفارتيه الرسميتين الى بلاد شامبا وسيلان، وهما من الاصقاع التي زارها في طريق عودته الى أوروبا بطريق بحار الجنوب.

واذا كانت اهتمامات ماركو بولو، بالدرجة الاولى، تجارية ولحساب والده وعمه فقد عرف كيف يمارس الملاحظة المباشرة وأن يستغل تحقيقاته غير المباشرة عن طريق

المعلومات التي كان يستقيها من أفواه الذين صادفهم . واذا كانت حياته تبدو وكأنها سارت في جو رائع وممتع فانها تدين للاختلافات القائمة بين الحضارتين الصينية والاوروبية ، لان الاخيرة كانت تمثل الطرف الهزيل أمام الاولى ، لان الاوروبيين كانوا يفتنون بسحرها عند الكلام عن السقوف الذهبية ، وعن الاصداف الحاوية على اللؤلؤ .

أما من وجهة النظر الى اثارة الحماسة عن البحث عن الذهب الوهاج ، ومن الزاوية العلمية ، فان ماركو بولو قد أرسى قواعد صلبة تثير حماسة الجغرافيين من ناحية ، وطرح بالنسبة للمغامرين ، في الطرف الغربي من العالم ، مذاقا شهيا عن قطر عجيب ، هو الصين خاصة ، والشرق الاقصى ، مصدر الحرير ، بعامة .

هذا وقد ضاع المخطوط الاصلي الذي كتبه روتيشيللو بلغة مختلطة بلغة البندقية « ميليونة » ولكن نجاح هذه القصة بلغ درجة جعلته ينقل بسرعة الى معظم اللغات الرومانية والايطالية . وقد تم حتى الآن احصاء ١٤٣ مخطوطة . ولكن أفضلها هو المخطوط الفرنسي الايطالي ، ورقمه ١١١٦ ، في المكتبة الوطنية في باريس ، وعنوانه « كتاب عجائب العالم » الذي كان يملكه دوق دو بيري ، في باريس ، سنة ١٤٠٠م . وهناك ترجمة لا تينية قام بها ف. بيبينو في فلورنسة سنة ١٣٢٠ ، أما النص الايطالي بقلم رأموزيو ، وعنوانه « رحلات بحرية وبرية » فتاريخه ١٥٥٩ . غير ان اكتشاف مخطوط في ميلانو عام ١٧٩٥ هو نسخة منقولة عن مخطوط لاتيني في ١٤٧٠ عثر عليه في طليطلة ، قاد الى ظهور ثلاث طبعات بالايطالية على يد ف . بينيديتو (فلورنسا ١٩٢٨ وتورينو ١٩٦٢) وبالانكليزية على يد مول A.C. Moule وبيليوت Pilliot (لندن ١٩٣٨) وبالفرنسية بجهود هامبيس L. Hembis في باريس سنة ١٩٥٥ .

ابن بطوطة (٧٠٢ هـ — ٧٧٩ هـ) — (١٣٠٣ — ١٣٧٧ م) :

كان أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتي عالما في الشريعة والفقه تخرج من معاهد طنجة . رأت عيناه النور لاول مرة في شهر شباط — آذار ١٣٠٣م / (٧٠٢هـ) ومنها جاء لقبه بالطنجي والذي غلبت عليه الشهرة العالمية وهي « ابن بطوطة » .

واذا كان سلفه ماركو بولو الذي يكبره بنحو ٤٩ عاما من حيث العمر قد انحدر، كما سبق ورأينا ، من أسرة تجارية عريقة ، فقد كان ابن بطوطة مدفوعا بالورع والتقوى لأداء فريضة الحج وارتياد طريق الحرير ، عن غير قصد ولا تصميم مسبق ، ولكن من الجنوب ، وهي الطريق التي سلكها ماركو بولو في عودته الى موطنه . بيد أن المسالك التي اختارها ، أو التي فرضتها الاقدار عليه ، تدل على أن هوايته الحقيقية هي الرحلة وحب الاستطلاع ، أو السياحة على أبعد تقدير .

فبعد أن اجتاز افريقيا الشمالية كلها بلغ وادي النيل وصعد في اتجاه معاكس لمجراه حتى الشلالات . ولكن نشوب حرب في تلك المناطق جعلته يقفل راجعا نحو الدلتا ، وارتحل بحرا الى بلاد الشام ، وزار دمشق وهي « شامة على خد العالم » كما يقول ، حيث كان الطاعون يجتث أرواح قرابة ٢٤٠٠٠ نسمة يوميا ، فقصد بغداد وأصفهان . ومن هناك سار مع ركب الحجيج الى مكة المكرمة من طريق غير مباشرة وأقام فيها ثلاثة أعوام قبل أن يزور بلاد النجاشي مرورا بميناء عدن .

وبعد فترة انكفأ ابن بطوطة نحو آسيا وانطلق من سيراف الى هرمز وزار بلاد العجم ، وعاد الى مكة ، واجتاز البلاد المصرية من جديد كي يبلغ الاناضول الذي كان يعاني من غليان سياسي شديد ، فقد كانت دولتا جنوه والبندقية في حالة صراع مرير للسيطرة على حوض البحر المتوسط الشرقي والقسطنطينية ومصر ، كما كان القبجق يتنازعون لاستلاب بقايا دولة السلاجقة .

ومر من ميناء سينوب على البحر الاسود التي كان أميرها يلجأ الى القرصنة ويعمد الى اغراق المراكب المعادية بثقبها مستعينا بغطاسين أثناء المعركة ، كما تفعل الضفادع البشرية في أيامنا . وبلغ شبه جزيرة القرم وتجول في بلاد السلطان محمد أوزبك خان في خيمة محمولة فوق مركبة حسب الطراز التتري . وقد استقبله السلطان وأعجب ابن بطوطة بعاصمته الجوالة ، وبأواني مائدته الذهبية ، وبثرواته الواردة من الهند ومن الصين . وقد اندفع حتى بلاد بلغار ، وهي منطقة قازان وأوفا، على نهو الفولغا الاوسط ، حيث تكون الليالي قصيرة صيفا ، وكان يتوقف لزيارة «بلاد الشفق » حيث يقسر الجليد على استبدال الكلاب بالخيول لجر الزحافات . غير انه عدل عن هذه الرغبة ، وعاد الى بلاد القبجق حيث طلب السماح له بمرافقة قافلة احدى زوجات السلطان في زيارتها لوالدها الامبراطور آندرونيك الثالث . وقد كان بصحبة الاميرة بيلون وبصحبة خمسمائة فارس ومائتي مملوك ، وألفي رأس من الخيل ، وثلاثمائة ثور ، ومائتي جمل ، وأربعمائة مركبة ومسجد محمول ، وواكبت القافلة ساحل البحر الاسود الشمالي، واجتاز دلتا نهر الدانوب حتى بلغ القسطنطينية التي كانت أجراس كنائسها تزلزل الافق ، واذا كان قد عجز عن زيارة كنيسة القديسة صوفيا بحسبانه مسلما فقد حظي بزيارة الامبراطور وباستقبال لائق .

وبعد اقامة استغرقت شهرا في القسطنطينية عاد في قلب فصل الشتاء الى بلاد القبجق وهو مدوج بجلود الذئاب في حين كانت تتدلى من شعر لحيته حبات الجليد. وبعد أن اجتاز نهو الفولغا (نهر الاثل) وزار بخارى وبلغ سمرقند « احدى أجمل مدن الدنيا » ذات القصور والجنان الرائعة ، والعديد من الطواحين القائمة على نهر الخزاف . ومن هناك بلغ نهر الهندوس وأقام ثلاثة أعوام في دلهي (دهلي) حيث شغل

منصب القضاء ، وشهد عن كثب السلطان محمد شاه الرهيب الذي كانت أفياله تقذف المحكومين بالاعدام في الهواء كي تتلقفهم بأنيابها المجهزة بخناجر حادة .

وفي عام ١٣٤٢/م (٧٤٣ هـ) أراد السلطان أن يبالغ في اكرام ضيفه فعهد اليه بمهمة شاقة لدى امبراطور الصين . وتشكلت فرقة مؤلفة من ٢٠٠٠ فارس لمصاحبة الرسول السامي الذي حمل الكثير من العطور والاقمشة والرقيق فضلا عن الهدايا الاخرى . غير أن القافلة تعرضت للنهب أثناء الطريق ، ولم يتم انقاذ ابن بطوطــة الا بمساعدة أحد الزنوج المرافقين ، فعاد الى دهلي ، وحصل على أموال جديدة لتجهيز قافلة ثانية ، واستأنف سيره حتى بلغ ساحل مالابار . وفي قاليقوت ، ظل ابن بطوطة ينتظر ثلاثة شهور ، بين الحدائق العائمة التي كان يزرع فيها الصينيون الزنجبيل ، وهو يرقب هبوب رياح طيبة ، ولكن في عشية الاقلاع غرقت سفنه الاربع عشرة مع كل ما فيها من رجال بفعل عاصفة مدمرة .

وبعد أن اعتراه الارهاق تخلى عنمسؤولياته كسفير وقصد جزر الملديف (الدبل)، وتزوج فيها وقضى هناك فترة سعيدة من حياته اذ تسنم منصب القضاء الى أن قسره الوزير الاول الى الرحيل ، فقصد ساحل كوروماندل الهندي ولكن الرياح دفعته نحــو جزيرة سيلان (سيريلانكا) حيث سلبه القراصنة كل ممتلكاتــه المنقولة فعاد الــى قاليقوت على بحر عمان والتي انطلق منها نحو صومطرة ووصل اليها أثناء استعراض مروع قام خلاله رجل بجز رقبته أمام السلطان تكريما له . وقد منحه هذا الامير كل ما يلزمه للانطلاق نحو الصين ، وظل يمخر عباب البحر خلال بضعة أشهر فوق « بحر ساكن » هو المحيط الهادي ، فبلغ كيلوكا ، وهي مدينة لم يمكن تحديدها حتى الان ، وتجول في أرجاء الصين في شتى الاتجاهات ، كما شهد جنازة الخان الكبير ، الذي كان سلفه ماركو بولو في خدمته وأسهب في الكلام عنه ، ويذكر أن ضريحه كان مليئا بجثث المحظيات . وقد جرت تضحية عشرة فرسان ذبحا فوق تل الضريح .

غير أن ابن بطوطة اضطر بعد قليل لمغادرة البلاد التي كانت فريسة اضطرابات سياسية ، دون أن يرى سور الصين العظيم الذي كان يلهب خياله . وعاد الى موطنه طنجة عام ١٣٤٩م / (٧٥٠ هـ) مرورا بجزيرة صومطرة وهرمز ومكة المكرمة ، وبلغ فاس حيث اختصه السلطان المريني بكل ترحاب لائق ، ولكنــه لم يلبث أن كلفــه السلطان بسفارة باتجاه السودان حيث زار بــلاد حوض النيجر الذي التبس عليــه بنهر النيل .

وفي فاس وفي بلاط السلطان المريني أملى ابن بطوطة رحلته على الكاتب الشاعر ابن جزّي الكلبي (المتوفي عام ٧٥٧هـ/١٣٥٦م) والذي زوقها بأسلوبه الخاص ومنحها عنوان « تحفة النظار في عجائب الامصار » الشهير بكتاب « رحلة ان بطوطة » .

الخلاصــة :

نستشف من استعراض رحلتي ابن بطوطة وماركو بولو أن اكتشاف الصـين وارتياد أرجائها كان هاجس العديد من أبناء الامم التي تعيش في قارتي أوروبا وافريقيا. واذا كان لطريق الحرير الارجحية البرية نظرا لقصر المسافة ونظرا لرفد مادة الحرير بمواد ومنتجات لا تقل أهمية كالاحجار الثمينة والفراء وأحيانا التوابل القادمة مـن الهند ، مثلما نلاحظ شدة اختلاف الدوافع لدى الرحالتين في تحمل المشاق والمخاطرة، ولكنهما أفلحا في فرض اسميهما على التاريخ ودخلا عالم الخالدين من أوسع أبوابه .

مراجع البحث

آندريه ميكيل ، جغرافية دار الاسلام البشرية ، جزآن ، ترجمة ابراهيم خوري ، وزارة الثقافة ، دمشق ١٩٨٣ .

د. شاكر خصباك ، في الجغرافية العربية ، بغداد ١٩٧٥ .

د. شاكر خصباك ، كتابات مضيئة في التراث ، بغداد ١٩٧٩ .

اغناطيوس كراتشكوفسكي ، تاريخ الادب الجغرافي العربي ، الادارة الثقافية ، الجامعة العربية ، الخرطوم ، ١٩٦١ .

د. عبد الرحمن حميدة ، أعلام الجغرافيين العرب ، دار الفكر ، دمشق ١٩٨٤ .

ابن بطوطة ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧٠ .

د. ابراهيم أحمد العدوي ، ابن بطوطة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥١ .

فؤاد أفرام البستاني ، ابن بطوطة ، بيروت ، ١٩٣٧ ، الروائع ، جزآن .

أحمد العوامري ومحمد أحمد جاد المولى ، ابن بطوطة ، القاهرة ١٩٣٩ .

نفيس أحمد ، الفكر الجغرافي في التراث الجغرافي الاسـلامي ، ترجمة فتحي عثمان ، دار القلـم ، الكويت ١٩٧٨

د. حسن محمد فهيم ، أدب الرحلات ، عالم المعرفة ، الكويت ١٩٨٩ .

أحمد أبو سعد ، أدب الرحلات ، دار الشرق الجديد ، بيروت ١٩٦١ .

René Glozier, **Les Etapes de la Géographie** P.U.F., Paris 1949 .

Macel Griault, **Les Grands Explorateurs,** P.U.F., Paris 1946.